

الثلاثاء العرّ :

الإيقاع الحيوي بين الحركة والسكون (1 من 2)

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD30615.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2015/06/30
السنة الثامنة - العدد: 2860



"لا دائم إلا الحركة. هي الألم والسرور. عندما تخضر من جديد الورقة، عندما تنبت الزهرة، عندما تنضج الثمرة، تمحي من الذاكرة سعة البرد وجلجلة الشتاء"
هذا ما قاله نجيب محفوظ وهو يكشف لنا عن دورات الإيقاع الحيوي لنبض الحياة في ملحمة الحرافيش.

إن دوام الحركة لا يعنى استمرارها بقدر ما يشير إلى حتمية دورانها الذي يشمل طورا من الكمون يبدو وكأنه السكون، لكنه في الحقيقة يتبادل مع طور الحركة في جدل يتمادى نحو التكامل المفتوح النهائية.

لا الحركة مطلوبة لذاتها، ولا السكون دائم الارتباط بالجمود والموت.

إن طرح بعد الحركة والسكون للنظر، هو دعوة للتساؤل حول الوجود والعدم، هذه الدعوة، في ذاتها، هي من المصائب التي ابتلى بها الجنس البشري دون من نعرف من الأحياء حالا، وتاريخا. إن إشكالية الحركة والسكون قد حلتها قوانين الوجود عبر التاريخ الرائع لتطور الأحياء، ولم تكن هناك حاجة إلى خدمات هذا الوعي البشري الذي قد يجانبه الصواب وهو يتخبط مع لهات الآلات التي اخترعها، وسط فيضان المعلومات التي غمر نفسه بها حتى تكاد تعجزه عن العموم، أو حتى عن مجرد الإمساك بالدفة لتحديد التوجه.

كثير من مظاهر البحث العلمي حركة في المحل إذا رضى الباحث أن يسجن في منهج

قديم مصمت

السعار الاستهلاكي على ما به من تنافس وأصوات ودعاية ليس إلا حركة زائفة.

إن مجرد الحديث عن الحركة وعقلنة الوعي بها- (مثلته مثل الحديث عن الجدل)، هو ضد الحركة (وضد الجدل). هذه بديهية ينبهنا إليها صلاح جاهين بحدسه الفائق حين يقول: "... تشوف رشاقة خطوتك تعبدك، بس انت لو بصيت لرجليك، تقع". هذا الوعي المعقلن بديلا عن تلقائية التطور قد أصبح إشكالا في ذاته، صحيح أنه لم يعد من الممكن الاطمئنان لتلقائية التطور بعد أن تدخل الإنسان مع سبق الإصرار والتعقل في تنظيم نوع وجوده، لكن صحيح أيضا أنه ليس في الإمكان التسليم لغلبة الجزء الطافي من وعينا العاقل دون تاريخه وأعماقه. يزداد هذا الإشكال إذا تذكرنا احتمال ما يمكن أن تحدثه الإنجازات التكنولوجية الأحدث، إذ هي تضاعف من الخطأ كما تضاعف من الصواب بسرعة قد نعجز عن اللحاق بها. هذا الوعي الإنساني يصبح مسئولية خطيرة إذا كانت قضيته هي "الحركة والسكون".

لهذا، وبالرغم من هذا، فإن التنظير الفلسفي والرياضي و العلمي لم يكف عن تناول بعد "الحركة/السكون: ظاهرا وباطنا، جوهرها ومظهرها، بالقوة وبالفعل. ويزداد الأمر تعقيدا حين نتبين كيف أنه لا يمكن تناول هذا الإشكال بعيدا عن إشكالية الزمن. الحركة تشكل الزمن، والزمن

إن طرح بعد الحركة والسكون للنظر، هو دعوة للتساؤل حول الوجود والعدم، هذه الدعوة، هي ذاتها، هي من المصائب التي ابتلى بها الجنس البشري دون من نعرفه من الأحياء حالا، وتاريخا

صحيح أنه لم يعد من الممكن الاطمئنان لتلقائية التطور بعد أن تدخل الإنسان مع سبق الإصرار والتعقل في تنظيم نوع وجوده،

صحيح أيضا أنه ليس في الإمكان التسليم لغلبة الجزء الطافي من وعينا العاقل دون تاريخه وأعماقه

الحركة تشكل الزمن، والزمن يحتويها. ولا حول ولا قوة إلا بالأول والآخر، الظاهر والباطن

راجع محفوظ يعلمنا في

يحتويها. ولا حول ولا قوة إلا بالأول والآخر، الظاهر والباطن،

البداء بالموت:

حين واجه الوعي البشرى هذا الإشكال المعقد عن الحركة والجمود- الحياة والموت، لجأ إلى لغة الفن والأسطورة التي تستوعب أندر وأرحب مما يمكن أن تستوعبه لغة العلم والعقلنة . وهكذا راح محفوظ يعلمنا في الحرافيش أن الوعي بالموت هو الدافع للحياة، وأن وهم الخلود (ليس بالمعنى الديني المعروف) هو الموت الجمود (=الموت بالخطرسة، والعزلة على القمة، والرتابة، والظلم، والانهاية، والثبات).

من هذا المدخل قدم لنا محفوظ الموت ليس باعتباره "ضد الحياة" بل كجزء لا يتجزأ من إيقاع الحياة النابض، هكذا قرأت رسالته في الحرافيش: "...إن الحياة، مجرد الحياة، ليست هي المرادف الحقيقي لما هو: ضد الموت.. الموت،...، هو حركة، بعكس الشائع عنه أنه عدم وسكون ("الموت لايجهز على الحياة، وإلا أجهز على نفسه" - ملحمة الحرافيش). من هذا المنطلق راح محفوظ يظهر كيف أن الوعي بالموت هو المبرر والدافع لاستمرار الحركة المسئولة عن إعادة التخلق وتفجر الوعي.

هكذا نجد أنفسنا أمام تساؤل يقول: إذا كان الاحتمال الأكبر هو أن يتضمن السكون حركة كامنة، وأن يدفع الوعي بالموت إلى حياة زاخرة، فما هو الذى ضد الحركة إذن؟ وما هو الذى ضد الحياة؟

قدم نجيب محفوظ (مازلنا في الحرافيش) عدة احتمالات لما هو "ضد الحياة"، منها على سبيل المثال: رمز"التكية"، ومنها الخلاء، وأحيانا الظلام، والظلمة، وأقل من ذلك الفراغ. ثم أكثر من ذلك وأخطر: التوقف عن التغيير الحقيقي بفرض سلطة غاشمة جائمة لا تنتازل عن موقعها إلا بمعركة (بين الفتوات) إما أن تصيب، وإما أن تخبب. لكنه ظل يؤكد في كل نبض دوراته، أن حسن نية الفتوة المنتصر، ليست ضمانا لتحيزه للحركة ضدالجمود، أو للعدل ضد الظلم.

ثم إنه حدد موقفه تماما في فصل "جلال صاحب الجلالة" (الحكاية السابعة من ملحمة الحرافيش) حين قدم نموذجا للجمود اللاغى للحركة في صورة "وهم الخلود" باعتباره أنه الرتابة المفرغة من الأمل والغد ومن المفاجأة. هذا الخلود الذى يمثل العدم المفرغ للزج، تلك الصورة المرعبة التى شاعت عند الغالبية مرتبطة بالموت كما يتصوره الكافة، وليس بالخلود كما صوره محفوظ. . وكان الملحمة تريد أن تقول: أن الأولى بنا ... أن نخاف هذا الخلود لا أن نخاف الموت،" (حفز الحياة). مرة أخرى: ليس الخلود بالمعنى الديني، ولكن بمعنى العزلة والاستغناء القاسى باضطراب رتيب)

استحالة السكون حتى لو بدا كذلك:

من هذا المنطلق: أبدأ بافتراض أن السكون (مثله مثل الإلحاد) هو استحالة بيولوجية، بمعنى أنه زعم عقلانى لا يتفق مع استمرار الخلايا الحية التى لا بقاء لها إلا بالحركة فى تناسق الهارموني المتصاعد مفتوح النهاية إلى ما لا نعرف (الغيب) حتى نتوحد فى المطلق، بل إن العدم نفسه هو مقولة نظرية لا يمكن التحقق منها (فهو استنتاج تجريدى أكثر منه عيانا ماثلا).

إذا كان الأمر كذلك، فعلينا أن نبحث بحدس أكثر يقظة فيما يملأ الصمت، ويغمر بياض الصفحات، وينبض فى عباءة السكوت. يعلمنا صلاح عبد الصبور كيف أنه "فليتكلم عنى صمتى المفعم" (ليلى والمجنون)، كما يعلمنا نجيب سرور كيف يكون السكوت مشروع كلام (-) "الكلام ممنوع يا ست"، (=) - والسكات ممنوع يا ست (= السكات ممنوع كمان؟) - السكات مشروع كلام. (نجيب سرور . آه يا ليل يا قمر) .

الحرافيش أن الوعي بالموت هو الدافع للحياة، وأن وهم الخلود (ليس بالمعنى الديني المعروف) هو الموت الجمود (=الموت بالخطرسة، والعزلة على القمة، والرتابة، والظلم، والانهاية، والثبات)

قدم لنا محفوظ الموت ليس باعتباره "ضد الحياة" بل كجزء لا يتجزأ من إيقاع الحياة النابض

إن الحياة، مجرد الحياة، ليست هي المرادف الحقيقي لما هو: ضد الموت.. الموت،...، هو حركة، بعكس الشائع عنه أنه عدم وسكون

أن الوعي بالموت هو المبرر والدافع لاستمرار الحركة المسئولة عن إعادة التخلق وتفجر الوعي (محموظ)

إذا كان الاحتمال الأكبر هو أن يتضمن السكون حركة كامنة، وأن يدفع الوعي بالموت إلى حياة زاخرة، فما هو الذى ضد الحركة إذن؟ وما هو الذى ضد الحياة؟

من هذا المنطلق الجديد يمكن أن نستوعب كيف أنه لكل طور حركته وسكونه اللذان يميزانه، كما أن البراعم المغلقة هي التي تنضج في الشتاء لتنتج الزهور في الربيع: (الدنيا من غير الربيع ميته، ورقة شجر ضعفانة ومفتتة، لا يا جدع غلطان تأمل وشوف: **زهر الشتا طالع في عز الشتا.صلاح جاهين.**)

إذا كان الأمر كذلك، فإن الفرض الحالي يكتمل باعتبار أن الإنسان (المعاصر أكثر) يبذل جهداً منظماً، وملاحقاً، لإعاقة الحركة الطبيعية التلقائية التي هي سر الحياة وأساس التطور. فيترتب على ذلك أننا لسنا في حاجة إلى أن نشغل أكثر بمحاولة إطلاق حركة الحياة والتطور والإبداع، فهي منطلقة بطبيعتها، لكننا في حاجة أن نوقف القهر المنظم الذي يعوق هذه الحركة الطبيعية خصوصاً بعد أن امتلك هذا القهر أدوات تكنولوجية تكاد تكتسب استقلالها عنه.

تعرية ومواجهة:

من هذا المنطلق، دعونا نقرأ بعض مظاهر ما يحيط بنا في محاولة إعادة تحديد ما هو حركة زائفة، وما هو سكون ظاهر أو كامن وراء كل مظهر خادع.

صورة مجسدة لزخم حركة زائفة:

سوف أغامر بأن أسترجع صورة زاهية من الألبومات الأخيرة، أقرأها لكم كما وصلتني شخصياً، بعد الانبهار، ومع فائق الاحترام:

التنافس الأولمبي قديم قدم محاولة الإنسان الاحتفاء باختبار قدراته البدنية متنافساً مع أخيه الإنسان، وأيضاً منذ تصور إمكانية أن تقوم الرياضة بوظيفة التسامى بالعدوان إلى صورة متحضرة. لا يوجد واحد يمكن أن يمنع نفسه من الإعجاب بهذا الإنجاز البشري المتفوق وهو يشارك أكثر من مليار من البشر يتابعون بعض بنى جنسهم وهم يسبحون راقصين في الهواء، وهم يطوون الأرض طياً كنفائات بشرية، وهم يرفعون الأثقال وكأنهم يرفعون هموم الإنسان المعاصر بلا طائل، وهم يصوبون كرة اليد داخل

المرمى وكأنهم يرجمون الشر المتربص بالأبرياء، إلى آخر كل هذا الإنجاز والإعجاز. وأنا - مثلى مثل الناس - أشاهد كل هذا وأعجب به أشد الإعجاب وأبلغه، هل توجد حركة أكثر سرعة وإثارة من كل ذلك؟ "ثم ماذا؟"

كنت أشاهد أحد أبطال الجري الذين حققوا إعجازاً حتى على أنفسهم، لا أذكر جنسيته (أو قل لا أريد أن أتذكرها، ربما حقداً، وربما خجلاً)، كان قد تفوق على الرقم القياسي العالمي السابق، وهو الذي سبق أن حققه هو أيضاً سنة 1994، تفوق عليه بمقدار ثلاثة من مائة من الثانية (0:03). رحلت أطلع هذا الفتى العظيم وقد ارتسم على وجهه شعور ليس له اسم، شعور أكبر من الفرحة، وأعمق من الفخر، تذكرت وصف باتريك زوسكيند في روايته الرائعة "العطر"، وهو يصف شعور بطلها "القاتل" جان باتيست غرنوي" بعد أن خلق عالمه من الروائح السرية المبتكرة، كان قد انفصل عن العالم والبشر بروائحهم الخاصة والمثيرة والمقززة، فخلق لنفسه عالماً ملاً بالقتل الذي حقق له شهوة لا مثيل لها واصفاً فعله هذا بأنه "هذه الفعل الماحق للقضاء على الروائح القذرة كلها، فعلاً مريحاً جداً.. لأنه يوفر الشعور بالإرهاق الناتج عن الإنجاز"، لم أفهم آنذاك كيف يكون الإرهاق الناتج عن الإنجاز مريحاً بكل هذا السحر إلا وأنا أشاهد وجه هذا الفتى الأولمبي بعد أن تفوق على نفسه بعد ست سنوات، فحطم رقمه القياسي بفارق ثلاثة من المائة من الثانية !!

انتبهت إلى أننا (نحن البشر) نمارس طقساً منذ آلاف السنين نقس من خلاله هذا **الإنجاز التنافسي الكمي المهاراتي**؟ وكأنه غاية المراد من رب العباد؟

هذه حركة ليس كمثلها حركة - العدو بسرعة نفاثة - لمجرد الوصول إلى "خط النهاية"، يفعلها

أن السكون (مثل مثل الإلهاد) هو استحالة بيولوجية، بمعنى أنه زعم عقلائي لا يتفق مع استمرار الخلايا الحية التي لا يفتأ لها إلا بالحركة فهي تناسق المهارموني المتصاعد مفتوح النهاية إلى ما لا نعرفه (الغيب) حتى نتوحد في المطلق

أن الإنسان (المعاصر أكثر) يبذل جهداً منظماً، وملاحقاً، لإعاقة الحركة الطبيعية التلقائية التي هي سر الحياة وأساس التطور

أننا لسنا في حاجة إلى أن نشغل أكثر بمحاولة إطلاق حركة الحياة والتطور والإبداع، فهي منطلقة بطبيعتها، لكننا في حاجة أن نوقف القهر المنظم الذي يعوق هذه الحركة الطبيعية

إن أظهر ما تظمر فيه الحركة الزائفة هي حلبة التنافس الفردي المغموم. إن أي واحد خليق أن يكتشف مدى اللابدوي في كثير مما يقو به ويجري حوله من

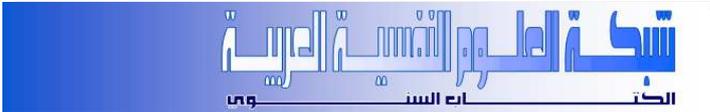
تنافس يتسارع فيه معظم
الناس (إن لم يكن كلهم)

يبدو أن ذلك الإرهاق الناتج
عن الإنجاز هو شعور مريح
جدا بحيث يمكن أن يفسر لنا
كثيراً من نشاطاتنا وحركتنا،
في كثير من المجالات

البطل -أدام الله عليه الصحة - فنتبعه منبهرين متقمصين إنجازه حتى نصل معه إلى هدفه!
إن مجرد مراجعتنا لكيفية استعمال تعبير "خط النهاية" قد يصلح لتنبيهنا إلى ما تسوقنا إليه مثل
هذه الحركة اللاهثة. نحن -عبر العالم - لم نتبين زيف كل ما هو نهاية مغلقة مثلما تبيناه من شطح
وغرور فوكوياما وهو يعلن "نهاية التاريخ"، قبل أن ينتبه إلى ما هو نهاية أخطر (نهاية الإنسان).
إن أظهر ما تظهر فيه الحركة الزائفة هي حلبة التنافس الفردي المحموم. إن أى واحد خليق أن
يكتشف مدى اللاجدوى فى كثير مما يقوم به ويجرى حوله من تنافس يتسارع فيه معظم الناس (إن
لم يكن كلهم) . هذه طبيعة بشرية مفيدة فى الأغلب، لكن أن تقتصر حركية حياتنا على ذلك، فهذا ما
أردت التنبيه إليه مطولاً فى هذا المثال الصارخ من الأولمبياد!!
على غرار إعادة قراءة هذا المثال المطول يمكن أن نراجع كثيراً من أنواع التنافس التى نمارسها
بكل إخلاص، لنحقق منها قدراً من القتل "الجميل" بالإنجاز المرهق:!!! يبدو أن ذلك الإرهاق الناتج
عن الإنجاز. هو شعور مريح جدا بحيث يمكن أن يفسر لنا كثيراً من نشاطاتنا وحركتنا، فى كثير من
المجالات.
وللحديث بقية.

□ - نشر المقال فى مجلة سطور عدد ديسمبر 2002، وقد رأيت إعادة نشره هذه الأيام حتى لا
نخدع فى حركة زائفة أو نطمئن إلى سكون كاذب، وربما أيضاً تمهيدا لتقديم نظيرتي عن الإيقاع
الحيوى.

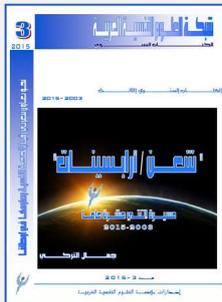
*** **



مؤسسة العلوم النفسية العربية

تهديكو

الكتاب السنوي الثالث لشبكة العلوم النفسية العربية



" شعور / أراب سينات"
مسيرة إثنتي عشر عاماً

2015-2003

تعمير ل الأهم حاء

www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet12Years.pdf



الإصدار التاسع - خريف و شتاء 2014 / 2015

ملف الوجدان و اضطرابات العواطف
أ.د. يحيى الرخاوي



تنزيل كامل الإصدار

http://www.arabpsynet.com/pass_download.asp?file=1002

المفهرس

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/eBT9/eB9YRCont&Chap1-2.pdf>

حليل الإصدار السابفة

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/IndexRak.htm>